الأسماء والصفات أصل العلم

تأليف

فضيلة الشيخ

أبي عبد الله محمد بن سعيد رسلان

حفظه الله تعالى

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ، وَنَسْتَعِينُهُ، وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

- **أَمَّا بَعْدُ:**

فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلَّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ.

- **أَمَّا بَعْدُ:**

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا

فَاللَّهُمَّ إِنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي أُحِبُّ أَنْ أَدُلَّ عَلَيْكَ، وَأُرْشِدَ إِلَىٰ صِرَاطِكَ، وَأُعَرِّفَ الْخَلْقَ بِكَ، وَأَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ أَنِّي لَسْتُ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْكَ أَهْلًا، وَلَا لِلْإِرْشَادِ إِلَىٰ صِرَاطِكَ مَحَلًّا، وَلَا أَنَا -إِنْ أَرَدْتُ تَعْرِيفَ الْخَلْقِ بِكَ- شَيْءٌ أَصْلًا، لَا لِي شَيْءٌ، وَلَا مِنِّي شَيْءٌ، وَلَا فِيَّ شَيْءٌ.

وَأَعْلَمُ أَنَّكَ قَضَيْتَ قَضَاءً مُبْرَمًا لَا يُحَلُّ، وَأَنَّكَ قَدْ أَمْضَيْتَ قَضَاءً نَافِذًا لَا يُرَدُّ؛ أَنَّ مَنْ سَمَّعَ؛ سَمَّعْتَ بِهِ، وَمَنْ رَاءَىٰ؛ رَاءَيْتَ بِهِ.

فَأَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ نِقْمَتِكَ، وَبِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ؛ أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ.

اللَّهُمَّ أَقِمْنِي مَقَامَ صِدْقٍ، **وَأَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ**، وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ، وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا.

أَفْضَلُ الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ

«**أَفْضَلُ الْعِلْمِ وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ**: الْعِلْمُ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَالْعَمَلُ بِمَرْضَاتِهِ، وَانْجِذَابُ الْقَلْبِ إِلَيْهِ بِالْحُبِّ وَالْخَوْفِ وَالرَّجَاءِ؛ فَهَذَا أَشْرَفُ مَا فِي الدُّنْيَا، وَجَزَاؤُهُ أَشْرَفُ مَا فِي الْآخِرَةِ.

وَأَجَلُّ الْمَقَاصِدِ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَحَبَّتُهُ، وَالْأُنْسُ بِقُرْبِهِ، وَالشَّوْقُ إِلَىٰ لِقَائِهِ، وَالتَّنَعُّمُ بِذِكْرِهِ؛ وَهَذَا أَجَلُّ سَعَادَةِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَهَذَا هُوَ الْغَايَةُ الَّتِي تُطْلَبُ لِذَاتِهَا.

وَإِنَّمَا يَشْعُرُ الْعَبْدُ تَمَامَ الشُّعُورِ بِأَنَّ ذَلِكَ عَيْنُ السَّعَادَةِ إِذَا انْكَشَفَ لَهُ الْغِطَاءُ، وَفَارَقَ الدُّنْيَا وَدَخَلَ الْآخِرَةَ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي الدُّنْيَا -وَإِنْ شَعَرَ بِذَلِكَ بَعْضَ الشُّعُورِ- فَلَيْسَ شُعُورُهُ كَامِلًا لِلْمُعَارَضَاتِ الَّتِي عَلَيْهِ، وَالْمِحَنِ الَّتِي امْتُحِنَ بِهَا، وَإِلَّا فَلَيْسَتِ السَّعَادَةُ فِي الْحَقِيقَةِ سِوَىٰ ذَلِكَ.

وَكُلُّ الْعُلُومِ وَالْمَعَارِفِ تَبَعٌ لِهَذِهِ الْمَعْرِفَةِ، مُرَادَةٌ لِأَجْلِهَا، وَتَفَاوُتُ الْعُلُومِ فِي فَضْلِهَا بِحَسَبِ إِفْضَائِهَا إِلَىٰ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَبُعْدِهَا، فَكُلُّ عِلْمٍ كَانَ أَقْرَبَ إِفْضَاءً إِلَىٰ الْعِلْمِ بِاللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ فَهُوَ أَعْلَىٰ مِمَّا دُونَهُ، وَكَذَلِكَ حَالُ الْقَلْبِ؛ فَكُلُّ حَالٍ كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْمَقْصُودِ الَّذِي خُلِقَ لَهُ فَهُوَ أَشْرَفُ مِمَّا دُونَهُ،

وَكَذَلِكَ الْأَعْمَالُ، فَكُلُّ عَمَلٍ كَانَ أَقْرَبَ إِلَىٰ تَحْصِيلِ هَذَا الْمَقْصُودِ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ غَيْرِهِ، وَلِهَذَا كَانَتِ الصَّلَاةُ وَالْجِهَادُ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ -أَوْ أَفْضَلَهَا- لِقُرْبِ إِفْضَائِهَا إِلَىٰ الْمَقْصُودِ.

وَهَكَذَا يَجِبُ أَنْ يَكُونَ؛ فَإِنَّهُ كُلَّمَا كَانَ الشَّيْءُ أَقْرَبَ إِلَىٰ الْغَايَةِ كَانَ أَفْضَلَ مِنَ الْبَعِيدِ عَنْهَا، فَالْعَمَلُ الْمُعِدُّ لِلْقَلْبِ الْمُهَيِّئُ لَهُ لِمَعْرِفَةِ اللهِ وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَخَوْفِهِ وَرَجَائِهِ؛ أَفْضَلُ مِمَّا لَيْسَ كَذَلِكَ.

وَإِذَا اشْتَرَكَتْ عِدَّةُ أَعْمَالٍ فِي هَذَا الْإِفْضَاءِ فَأَفْضَلُهَا أَقْرَبُهَا إِلَىٰ هَذَا الْمَقْصُودِ، وَلِهَذَا اشْتَرَكَتِ الطَّاعَاتُ فِي هَذَا الْإِفْضَاءِ فَكَانَتْ مَطْلُوبَةً لِلَّهِ، وَاشْتَرَكَتِ الْمَعَاصِي فِي حَجْبِ الْقَلْبِ وَقَطْعِهِ عَنْ هَذِهِ الْغَايَةِ فَكَانَتْ مَنْهِيًّا عَنْهَا، وَتَأْثِيرُ الطَّاعَاتِ وَالْمَعَاصِي بِحَسَبِ دَرَجَاتِهَا»(١).

❁ ❁ ❁

(١) «عدة الصابرين»: (ص٢١٥-٢١٦).

أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْحُسْنَى وَبَيَانُ ثَمَرَاتِهَا الْعَظِيمَةِ

قَالَ الْإِمَامُ الْعَلَّامَةُ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللَّهُ(١): «الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَالصِّفَاتُ الْعُلَىٰ مُقْتَضِيَةٌ لِآثَارِهَا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ وَالْأَمْرِ اقْتِضَاءَهَا لِآثَارِهَا مِنَ الْخَلْقِ وَالتَّكْوِينِ، فَلِكُلِّ عُبُودِيَّةٌ خَاصَّةٌ هِيَ مِنْ مُوجِبَاتِهَا وَمُقْتَضَيَاتِهَا -أَعْنِي مِنْ مُوجِبَاتِ الْعِلْمِ بِهَا وَالتَّحَقُّقِ بِمَعْرِفَتِهَا-، وَهَذَا مُطَّرِدٌ فِي جَمِيعِ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ الَّتِي عَلَىٰ الْقَلبِ وَالْجَوَارِحِ.

* فَعِلْمُ الْعَبْدِ بِتَفَرُّدِ الرَّبِّ -تَعَالَىٰ- بِالضُّرِّ وَالنَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَالْخَلْقِ وَالرِّزْقِ، وَالْإِحْيَاءِ وَالْإِمَاتَةِ؛ يُثْمِرُ لَهُ عُبُودِيَّةَ التَّوَكُّلِ عَلَيْهِ بَاطِنًا، وَلَوَازِمَ التَّوَكُّلِ وَثَمَرَاتِهِ ظَاهِرًا.

* وَعِلْمُهُ بِسَمْعِهِ -تَعَالَىٰ- وَبَصَرِهِ وَعِلْمِهِ، وَأَنَّهُ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ، وَأَنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَىٰ، وَيَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ؛ يُثْمِرُ لَهُ حِفْظَ لِسَانِهِ وَجَوَارِحِهِ وَخَطَرَاتِ قَلْبِهِ عَنْ كُلِّ مَا لَا

---

(١) «مفتاح دار السعادة»: (٢/ ١٠٨٥-١٠٨٩).

يُرْضِي اللهَ، وَأَنْ يَجْعَلَ تَعَلُّقَ هَذِهِ الْأَعْضَاءِ بِمَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ؛ فَيُثْمِرُ لَهُ ذَلِكَ الْحيَاءُ اجْتِنَابَ الْمُحَرَّمَاتِ وَالْقَبَائِحِ.

* وَمَعْرِفَتُهُ بِغِنَاهُ وَجُودِهِ وَكَرَمِهِ، وَبِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ، وَرَحْمَتِهِ؛ تُوجِبُ لَهُ سَعَةَ الرَّجَاءِ، وَيُثْمِرُ لَهُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعُبُودِيَّةِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ بِحَسَبِ مَعْرِفَتِهِ وَعِلْمِهِ.

* وَكَذَلِكَ مَعْرِفَتُهُ بِجَلَالِ اللهِ وَعَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ تُثْمِرُ لَهُ الْخُضُوعَ وَالِاسْتِكَانَةَ وَالْمَحَبَّةَ، وَتُثْمِرُ لَهُ تِلْكَ الْأَحْوَالُ الْبَاطِنَةُ أَنْوَاعًا مِنَ الْعُبُودِيَّةِ الظَّاهِرَةِ؛ هِيَ مُوجِبَاتُهَا.

* وَكَذَلِكَ عِلْمُهُ بِكَمَالِهِ وَجَمَالِهِ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ يُوجِبُ لَهُ مَحَبَّةً خَاصَّةً تُثْمِرُ لَهُ أَنْوَاعَ الْعُبُودِيَّةِ، فَرَجَعَتِ الْعُبُودِيَّةُ كُلُّهَا إِلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَارْتَبَطَتْ بِهَا ارْتِبَاطَ الْخَلْقِ، فَخَلْقُهُ -سُبْحَانَهُ- وَأَمْرُهُ هُوَ مُوجَبُ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ فِي الْعَالَمِ وَآثَارُهَا وَمُقْتَضَاهَا، لَا أَنَّهُ يَتَزَيَّنُ مِنْ عِبَادِهِ بِطَاعَتِهِمْ، وَلَا يَشِينُهُ مَعْصِيَتُهُمْ.

وَتَأَمَّلْ قَوْلَهُ ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ[1] الَّذِي يَرْوِيهِ عَنْ رَبِّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي**».

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ١٩٩٤-١٩٩٥، رقم ٢٥٧٧)، من حديث: أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه.

ذَكَرَ هَذَا عَقِبَ قَوْلِهِ: «**يَا عِبَادِي! إِنَّكُمْ تُخْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا، فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ**».

فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّ مَا يَفْعَلُهُ -تَعَالَىٰ- بِهِمْ مِنْ غُفْرَانِ زَلَّاتِهِمْ، وَإِجَابَةِ دَعَوَاتِهِمْ، وَتَفْرِيجِ كُرُبَاتِهِمْ؛ لَيْسَ لِجَلْبِ مَنْفَعَةٍ مِنْهُمْ، وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ يَتَوَقَّعُهَا مِنْهُمْ، كَمَا هُوَ عَادَةُ الْمَخْلُوقِ الَّذِي يَنْفَعُ غَيْرَهُ لِيُكَافِئَهُ بِنَفْعٍ مِثْلِهِ، أَوْ لِيَدْفَعَ عَنْهُ ضَرَرًا.

فَالرَّبُّ -تَعَالَىٰ- لَمْ يُحْسِنْ إِلَىٰ عِبَادِهِ لِيُكَافِئُوهُ، وَلَا لِيَدْفَعُوا عَنْهُ ضَرَرًا؛ فَقَالَ جَلَّ وَعَلَا: «**لَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي، وَلَنْ تَبْلُغُوا ضَرِّي فَتَضُرُّونِي**»، إِنِّي لَسْتُ إِذَا هَدَيْتُ مُسْتَهْدِيَكُمْ، وَأَطْعَمْتُ مُسْتَطْعِمَكُمْ، وَكَسَوْتُ مُسْتَكْسِيَكُمْ، وَأَرْوَيْتُ مُسْتَسْقِيَكُمْ، وَكَفَيْتُ مُسْتَكْفِيَكُمْ، وَغَفَرْتُ لِمُسْتَغْفِرِكُمْ، بِالَّذِي أَطْلُبُ مِنْكُمْ أَنْ تَنْفَعُونِي أَوْ تَدْفَعُوا عَنِّي ضَرَرًا؛ فَإِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ذَلِكَ وَأَنَا الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ، كَيفَ وَالْخَلْقُ عَاجِزُونَ عَمَّا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْأَفْعَالِ إِلَّا بِإِقْدَارِهِ وَتَيْسِيرِهِ وَخَلْقِهِ، فَكَيْفَ بِمَا لَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ؟!!

فَكَيْفَ يَبْلُغُونَ نَفْعَ الْغَنِيِّ الصَّمَدِ الَّذِي يَمْتَنِعُ فِي حَقِّهِ أَنْ يَسْتَجْلِبَ مِنْ غَيْرِهِ نَفْعًا أَوْ يَسْتَدْفِعَ مِنْهُ ضَرَرًا، بَلْ ذَلِكَ مُسْتَحِيلٌ فِي حَقِّهِ؟!!

ثُمَّ ذَكَرَ بَعْدَ هَذَا قَوْلَهُ: «**يَا عِبَادِي! لَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَتْقَىٰ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا، وَلَوْ أَنَّ أَوَّلَكُمْ وَآخِرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجِنَّكُمْ كَانُوا عَلَىٰ أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ؛ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا**».

فَبَيَّنَ -سُبْحَانَهُ- أَنَّ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنَ الطَّاعَاتِ، وَمَا نَهَاهُمْ عَنْهُ مِنَ السَّيِّئَاتِ؛ لَا يَتَضَمَّنُ اسْتِجْلَابَ نَفْعِهِمْ، وَلَا اسْتِدْفَاعَ ضَرَرِهِمْ، كَأَمْرِ السَّيِّدِ عَبْدَهُ وَالْوَالِدِ وَلَدَهُ وَالْإِمَامِ رَعِيَّتَهُ؛ بِمَا يَنْفَعُ الْآمِرَ وَالْمَأْمُورَ، وَنَهْيِهِمْ عَمَّا يَضُرُّ النَّاهِيَ وَالْمَنْهِيَّ.

فَبَيَّنَ -تَعَالَىٰ- أَنَّهُ الْمُنَزَّهُ عَنْ لُحُوقِ نَفْعِهِمْ وَضَرِّهِمْ بِهِ فِي إِحْسَانِهِ إِلَيْهِمْ بِمَا يَفْعَلُهُ بِهِمْ وَبِمَا يَأْمُرُهُمْ بِهِ، وَلِهَذَا لَمَّا ذَكَرَ الْأَصْلَيْنِ بَعْدَ هَذَا وَأَنَّ تَقْوَاهُمْ وَفُجُورَهُمُ الَّذِي هُوَ طَاعَتُهُمْ وَمَعْصِيَتُهُمْ؛ لَا يَزِيدُ فِي مُلْكِهِ شَيْئًا وَلَا يَنْقُصُهُ، وَأَنَّ نِسْبَةَ مَا يَسْأَلُونَهُ كُلُّهُمْ إِيَّاهُ؛ فَيُعْطِيهِمْ إِلَىٰ مَا عِنْدَهُ كَلَا نِسْبَةٍ.

فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ أَنَّهُ لَمْ يَأْمُرْهُمْ وَلَمْ يُحْسِنْ إِلَيْهِمْ بِإِجَابَةِ الدَّعْوَاتِ، وَغُفْرَانِ الزَّلَّاتِ، وَتَفْرِيجِ الْكُرُبَاتِ لِاسْتِجْلَابِ مَنْفَعَةٍ وَلَا لِاسْتِدْفَاعِ مَضَرَّةٍ، وَأَنَّهُمْ لَوْ أَطَاعُوهُ كُلُّهُمْ لَمْ يَزِيدُوا فِي مُلْكِهِ شَيْئًا، وَلَوْ عَصَوْهُ كُلُّهُمْ لَمْ يَنْقُصُوا مِنْ مُلْكِهِ شَيْئًا، وَأَنَّهُ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ.

وَمَنْ كَانَ هَكَذَا فَإِنَّهُ لَا يَتَزَيَّنُ بِطَاعَةِ عِبَادِهِ، وَلَا تَشِينُهُ مَعَاصِيهِمْ، وَلَكِنْ لَهُ مِنَ الْحِكَمِ الْبَوَالِغِ فِي تَكْلِيفِ عِبَادِهِ وَأَمْرِهِمْ وَنَهْيِهِمْ مَا يَقْتَضِيهِ مُلْكُهُ التَّامُّ وَحَمْدُهُ وَحِكْمَتُهُ.

وَلَوْ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَنَّهُ يَسْتَوْجِبُ مِنْ عِبَادِهِ شُكْرَ نِعَمِهِ الَّتِي لَا تُحْصَىٰ بِحَسَبِ قُوَاهُمْ وَطَاقَاتِهِمْ لَا بِحَسَبِ مَا يَنْبَغِي لَهُ؛ فَإِنَّهُ أَعْظَمُ وَأَجَلُّ مِنْ أَنْ يَقْدِرَ خَلْقُهُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- يَرْضَىٰ مِنْ عِبَادِهِ بِمَا تَسْمَحُ بِهِ طَبَائِعُهُمْ وَقُوَاهُمْ، فَلَا شَيْءَ أَحْسَنُ فِي الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ مِنْ شُكْرِ الْمُنْعِمِ، وَلَا أَنْفَعُ لِلْعَبْدِ مِنْهُ.

فَهَذَانِ مَسْلَكَانِ فِي حُسْنِ التَّكْلِيفِ وَالْأَمْرِ وَالنَّهْيِ:

أَحَدُهُمَا: يَتَعَلَّقُ بِذَاتِهِ وَصِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ أَهْلٌ لِذَلِكَ، وَأَنَّ جَمَالَهُ -تَعَالَىٰ- وَكَمَالَهُ وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ تَقْتَضِي مِنْ عِبَادِهِ غَايَةَ الْحُبِّ وَالذُّلِّ وَالطَّاعَةِ لَهُ.

وَالثَّانِي: مُتَعَلِّقٌ بِإِحْسَانِهِ وَإِنْعَامِهِ، لَا سِيَّمَا مَعَ غِنَاهُ عَنْ عِبَادِهِ وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُحْسِنُ إِلَيْهِمْ؛ رَحْمَةً مِنْهُ وَجُودًا وَكَرَمًا، لَا لِمُعَاوَضَةٍ وَلَا لِاسْتِجْلَابِ مَنْفَعَةٍ وَلَا لِدَفْعِ مَضَرَّةٍ، وَأَيُّ الْمَسْلَكَيْنِ سَلَكَهُ الْعَبْدُ أَوْقَفَهُ عَلَىٰ مَحَبَّتِهِ وَبَذْلِ الْجُهْدِ فِي مَرْضَاتِهِ».

«**وَالْعَبْدُ إِذَا فَتَحَ اللهُ لِقَلْبِهِ شُهُودَ أَوَّلِيَّتِهِ -سُبْحَانَهُ-**: حَيْثُ كَانَ وَلَا شَيْءَ غَيْرُهُ، وَهُوَ الْإِلَهُ الْحَقُّ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، الْغَنِيُّ بِذَاتِهِ عَمَّا سِوَاهُ، الْحَمِيدُ الْمَجِيدُ بِذَاتِهِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ مَنْ يَحْمَدُهُ وَيَعْبُدُهُ وَيُمَجِّدُهُ، فَهُوَ مَعْبُودٌ مَحْمُودٌ، حَيٌّ قَيُّومٌ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْأَزَلِ وَالْأَبَدِ، لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مَوْصُوفًا بِصِفَاتِ الْجَلَالِ، مَنْعُوتًا بِنُعُوتِ الْكَمَالِ، وَكُلُّ شَيْءٍ سِوَاهُ فَإِنَّمَا كَانَ بِهِ، وَهُوَ -تَعَالَىٰ- بِنَفْسِهِ لَيْسَ بِغَيْرِهِ؛ فَهُوَ الْقَيُّومُ الَّذِي قِيَامُ كُلِّ شَيْءٍ بِهِ، وَلَا حَاجَةَ بِهِ فِي قَيُّومِيَّتِهِ إِلَىٰ غَيْرِهِ بِوَجْهٍ مِنَ الْوُجُوهِ.

فَإِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ سَبْقَهُ -تَعَالَىٰ- بِالْأَوَّلِيَّةِ وَدَوَامَ وُجُودِهِ الْحَقِّ، وَغَابَ بِهَذَا عَمَّا سِوَاهُ مِنَ الْمُحْدَثَاتِ؛ اسْتَغْنَىٰ الْعَبْدُ بِهَذَا الْمَشْهَدِ الْعَظِيمِ، وَتَغَذَّىٰ بِتِلْكَ الْمَعْرِفَةِ عَنْ فَاقَاتِهِ وَحَاجَاتِهِ، فَاضْمَحَلَّ مَا دُونَ الْحَقِّ -تَعَالَىٰ- فِي شُهُودِ الْعَبْدِ، كَمَا هُوَ مُضْمَحِلٌّ فِي نَفْسِهِ، وَشَهِدَ الْعَبْدُ -حِينَئِذٍ- أَنَّ كُلَّ شَيْءٍ مِمَّا سِوَىٰ اللهِ بَاطِلٌ، وَأَنَّ الْحَقَّ الْمُبِينَ هُوَ اللهُ وَحْدَهُ»(١).

---

(١) «**طريق الهجرتين**»: (١/ ٨٧-٨٨)، بتصرف يسير واختصار.

«فَهُوَ الْأَوَّلُ الَّذِي لَيْسَ قَبْلَهُ شَيْءٌ، قَالَ بَعْضُهُمْ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا؛ إِلَّا وَقَدْ رَأَيْتُ اللهَ قَبْلَهُ».

وَرَأَىٰ هُنَا: هِيَ الْعِلْمِيَّةُ(١) الْمُتَعَدِّيَةُ إِلَىٰ مَفْعُولَيْنِ؛ كَقَوْلِ الشَّاعِرِ:

رَأَيْتُ اللهَ أَكْبَرَ كُلِّ شَيْءٍ مُحَاوَلَةً(٢) وَأَكْثَرَهُمْ جُنُودًا(٣)

فَيَشْهَدُ الْقَلْبُ سَبْقَهُ لِلْأَسْبَابِ، وَأَنَّهَا كَانَتْ فِي حَيِّزِ الْعَدَمِ، وَهُوَ الَّذِي كَسَاهَا حُلَّةَ الْوُجُودِ، فَهِيَ مَعْدُومَةٌ بِالذَّاتِ، فَقِيرَةٌ إِلَيْهِ بِالذَّاتِ، وَهُوَ الْمَوْجُودُ بِذَاتِهِ، وَالْغَنِيُّ بِذَاتِهِ لَا بِغَيْرِهِ، فَلَيْسَ الْغِنَىٰ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا بِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ فِي الْحَقِيقَةِ إِلَّا لَهُ، فَالْغِنَىٰ بِغَيْرِهِ: عَيْنُ الْفَقْرِ؛ فَإِنَّهُ غِنًى بِمَعْدُومٍ فَقِيرٍ، وَفَقِيرٌ كَيْفَ يَسْتَغْنِي بِفَقِيرٍ مِثْلِهِ؟!!»(٤).

---

(١) أي بمعنىٰ: علمت.

(٢) قوله: «**محاولة**»، أي: قوة، ويقال: المحاولة: طلب الشيء بحيلة، وهذا المعنىٰ لا يقال في حق الله تعالىٰ.

انظر: «**المقاصد النحوية في شرح الشواهد**»: (٢/ ٨٢٢-٨٢٤).

(٣) البيت للشاعر الجاهلي: خداش بن زهير بن ربيعة العامري، وهو في «**ديوانه**»: (ص٤١)، من القصيدة «المنصفة»، كذا سماها ابن سلام، يقول في مطلعها [من الوافر]:

صبا قلبي وكلفني كَنودا وعاود داءه منها التليدا

والقصيدة في «**منتهىٰ الطلب من أشعار العرب**»: (٨/ ٣٥٨-٣٦٤، رقم ٤٦٤)، وقد عزاه بعض شراح الشواهد لأبي زيد، وذكره بعضهم بلا نسبة.

(٤) «**مدارج السالكين**»: (٢/ ٤٢٢)، بتصرف يسير.

«وَلَيْسَ هَذَا مُخْتَصًّا بِشُهُودِ أَوَّلِيَّتِهِ -تَعَالَىٰ- فَقَطْ، بَلْ جَمِيعُ مَا يَبْدُو لِلْقُلُوبِ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ ﷻ يَسْتَغْنِي الْعَبْدُ بِهَا بِقَدْرِ حَظِّهِ وَقَسْمِهِ مِنْ مَعْرِفَتِهَا وَقِيَامِهِ بِعُبُودِيَّتِهَا.

* **فَمَنْ شَهِدَ مَشْهَدَ عُلُوِّ اللهِ عَلَىٰ خَلْقِهِ، وَفَوْقِيَّتِهِ لِعِبَادِهِ، وَاسْتِوَائِهِ عَلَىٰ عَرْشِهِ** كَمَا أَخْبَرَ بِهِ أَعْرَفُ الْخَلْقِ وَأَعْلَمُهُمْ بِهِ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ، وَتَعَبَّدَ بِمُقْتَضَىٰ هَذِهِ الصِّفَةِ؛ بِحَيْثُ يَصِيرُ لِقَلْبِهِ صَمَدًا يَعْرُجُ الْقَلْبُ إِلَيْهِ مُنَاجِيًا لَهُ، مُطْرِقًا وَاقِفًا بَيْنَ يَدَيْهِ وُقُوفَ الْعَبْدِ الذَّلِيلِ بَيْنَ يَدَيِ الْمَلِكِ الْعَزِيزِ؛ فَيَشْعُرُ بِأَنَّ كَلِمَهُ وَعَمَلَهُ صَاعِدٌ إِلَيْهِ، مَعْرُوضٌ عَلَيْهِ، بَيْنَ خَاصَّتِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، فَيَسْتَحْيِي أَنْ يَصْعَدَ إِلَيْهِ مِنْ كَلِمِهِ مَا يُخْزِيهِ وَيَفْضَحُهُ هُنَاكَ.

وَيَشْهَدُ نُزُولَ الْأَمْرِ وَالْمَرَاسِيمِ(١) الْإِلَهِيَّةِ إِلَىٰ أَقْطَارِ الْعَوَالِمِ كُلَّ وَقْتٍ؛ بِأَنْوَاعِ التَّدْبِيرِ وَالتَّصَرُّفِ؛ مِنَ الْإِمَاتَةِ وَالْإِحْيَاءِ، وَالتَّوْلِيَةِ وَالْعَزْلِ، وَالْخَفْضِ وَالرَّفْعِ، وَالْعَطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَكَشْفِ الْبَلَاءِ وَإِرْسَالِهِ، وَتَقَلُّبِ الدُّوَلِ وَمُدَاوَلَةِ الْأَيَّامِ بَيْنَ النَّاسِ، إِلَىٰ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ التَّصَرُّفِ فِي الْمَمْلَكَةِ، الَّتِي لَا يَتَصَرَّفُ فِيهَا سِوَاهُ، فَمَرَاسِيمُهُ نَافِذَةٌ كَمَا يَشَاءُ: ﴿ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [السجدة: ٥].

فَمَنْ أَعْطَىٰ هَذَا الْمَشْهَدَ حَقَّهُ مَعْرِفَةً وَعُبُودِيَّةً؛ اسْتَغْنَىٰ بِهِ.

---

(١) **(المراسيم)** جمع مرسوم، وهو: الأمر المكتوب من السلطان.

انظر: «**تاج العروس**»: (٣٢/ ٢٥٩)، و«**تكملة المعاجم العربية**»: (٥/ ١٤٠).

* **وَكَذَلِكَ مَنْ شَهِدَ مَشْهَدَ الْعِلْمِ الْمُحِيطِ** الَّذِي لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاوَاتِ، وَلَا فِي قَرَارِ الْبِحَارِ، وَلَا تَحْتَ أَطْبَاقِ الْجِبَالِ، بَلْ أَحَاطَ بِذَلِكَ كُلِّهِ عِلْمًا تَفْصِيلِيًّا.

ثُمَّ تَعَبَّدَ الْعَبْدُ بِمُقْتَضَىٰ هَذَا الشُّهُودِ مِنْ حِرَاسَةِ خَوَاطِرِهِ وَإِرَادَاتِهِ وَجَمِيعِ أَحْوَالِهِ وَعَزَمَاتِهِ وَجَوَارِحِهِ؛ عَلِمَ بِأَنَّ حَرَكَاتِهِ الظَّاهِرَةَ وَالْبَاطِنَةَ، وَخَوَاطِرَهُ وَإِرَادَاتِهِ، وَجَمِيعَ أَحْوَالِهِ؛ ظَاهِرَةٌ مَكْشُوفَةٌ لَدَيْهِ، عَلَانِيَةٌ لَهُ، بَادِيَةٌ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ مِنْهَا شَيْءٌ.

* **وَكَذَلِكَ إِذَا أَشْعَرَ الْعَبْدُ الْقَلْبَ صِفَةَ سَمْعِهِ** تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ سَمْعِهِ لِأَصْوَاتِ عِبَادِهِ عَلَىٰ اخْتِلَافِهَا، وَجَهْرِهَا وَخَفَائِهَا، وَسَوَاءٌ عِنْدَهُ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ، لَا يَشْغَلُهُ جَهْرُ مَنْ جَهَرَ عَنْ سَمْعِهِ لِصَوْتِ مَنْ أَسَرَّ، وَلَا يَشْغَلُهُ سَمْعٌ عَنْ سَمْعٍ، وَلَا تُغْلِطُهُ الْأَصْوَاتُ عَلَىٰ كَثْرَتِهَا وَاخْتِلَافِهَا وَاجْتِمَاعِهَا، بَلْ هِيَ عِنْدَهُ كُلُّهَا كَصَوْتٍ وَاحِدٍ، كَمَا أَنَّ خَلْقَ الْخَلْقِ جَمِيعِهِمْ وَبَعْثَهُمْ عِنْدَهُ بِمَنْزِلَةِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ.

* **وَكَذَلِكَ إِذَا شَهِدَ الْعَبْدُ مَعْنَىٰ اسْمِهِ (الْبَصِيرِ)** ﷻ الَّذِي يَرَىٰ دَبِيبَ النَّمْلَةِ السَّوْدَاءِ عَلَىٰ الصَّخْرَةِ الصَّمَّاءِ فِي حِنْدِسِ الظَّلْمَاءِ، وَيَرَىٰ تَفَاصِيلَ خَلْقِ الذَّرَّةِ الصَّغِيرَةِ وَمُخَّهَا وَعُرُوقَهَا وَلَحْمَهَا وَحَرَكَتَهَا، وَيَرَىٰ مَدَّ الْبَعُوضَةِ جَنَاحَهَا فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ، وَأَعْطَىٰ الْعَبْدُ هَذَا الْمَشْهَدَ حَقَّهُ مِنَ الْعُبُودِيَّةِ؛ فَحَرَسَ حَرَكَاتِهِ وَسَكَنَاتِهِ، وَتَيَقَّنَ أَنَّهَا بِمَرْأًىٰ مِنْهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وَمُشَاهَدَةٍ، لَا يَغِيبُ عَنْهُ مِنْهَا شَيْءٌ.

* **وَكَذَلِكَ إِذَا شَهِدَ مَشْهَدَ (الْقَيُّومِيَّةِ) الْجَامِعَ لِصِفَاتِ الْأَفْعَالِ**، وَأَنَّهُ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ، وَقَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ، وَأَنَّهُ -تَعَالَىٰ- هُوَ الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ الْمُقِيمُ لِغَيْرِهِ، الْقَائِمُ عَلَيْهِ بِتَدْبِيرِهِ وَرُبُوبِيَّتِهِ وَقَهْرِهِ، وَإِيصَالِ جَزَاءِ الْمُحْسِنِ إِلَيْهِ وَجَزَاءِ الْمُسِيءِ إِلَيْهِ، وَأَنَّهُ لِكَمَالِ قَيُّومِيَّتِهِ لَا يَنَامُ وَلَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يَنَامَ، يَخْفِضُ الْقِسْطَ وَيَرْفَعُهُ، يُرْفَعُ إِلَيْهِ عَمَلُ اللَّيْلِ قَبْلَ النَّهَارِ، وَعَمَلُ النَّهَارِ قَبْلَ اللَّيْلِ، لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ، وَلَا يَضِلُّ وَلَا يَنْسَىٰ.

وَهَذَا الْمَشْهَدُ مِنْ أَرْفَعِ مَشَاهِدِ الْعَارِفِينَ؛ وَهُوَ (**مَشْهَدُ الرُّبُوبِيَّةِ**).

* **وَأَعْلَىٰ مِنْهُ (مَشْهَدُ الْإِلَهِيَّةِ)** الَّذِي هُوَ مَشْهَدُ الرُّسُلِ وَأَتْبَاعِهِمُ الْحُنَفَاءِ، وَهُوَ شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، وَأَنَّ إِلَهِيَّةَ مَا سِوَاهُ بَاطِلٌ وَمُحَالٌ، كَمَا أَنَّ رُبُوبِيَّةَ مَا سِوَاهُ كَذَلِكَ، فَلَا أَحَدَ سِوَاهُ يَسْتَحِقُّ أَنْ يُؤَلَّهَ وَيُعْبَدَ، وَيُصَلَّىٰ لَهُ وَيُسْجَدَ، وَيَسْتَحِقُّ نِهَايَةَ الْحُبِّ مَعَ نِهَايَةِ الذُّلِّ؛ لِكَمَالِ أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ؛ فَهُوَ الْمُطَاعُ وَحْدَهُ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ، وَالْمَأْلُوهُ وَحْدَهُ، وَلَهُ الْحُكْمُ وَحْدَهُ.

فَكُلُّ عُبُودِيَّةٍ لِغَيْرِهِ بَاطِلَةٌ وَعَنَاءٌ وَضَلَالٌ، وَكُلُّ مَحَبَّةٍ لِغَيْرِهِ عَذَابٌ لِصَاحِبِهَا، وَكُلُّ غِنًىٰ بِغَيْرِهِ فَقْرٌ وَفَاقَةٌ، وَكُلُّ عِزٍّ بِغَيْرِهِ ذُلٌّ وَصَغَارٌ، وَكُلُّ تَكَثُّرٍ بِغَيْرِهِ قِلَّةٌ وَذِلَّةٌ، فَكَمَا يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لِلْخَلْقِ رَبٌّ غَيْرُهُ؛ فَكَذَلِكَ اسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُهُ؛ فَهُوَ الَّذِي انْتَهَتْ إِلَيْهِ الرَّغَبَاتُ، وَتَوَجَّهَتْ نَحْوَهُ الطَّلَبَاتُ.

وَيَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ مَعَهُ إِلَهٌ آخَرُ؛ فَإِنَّ الْإِلَهَ عَلَىٰ الْحَقِيقَةِ هُوَ الْغَنِيُّ الصَّمَدُ الْكَامِلُ فِي أَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، الَّذِي حَاجَةُ كُلِّ أَحَدٍ إِلَيْهِ، وَلَا حَاجَةَ بِهِ إِلَىٰ أَحَدٍ، وَقِيَامُ كُلِّ شَيْءٍ بِهِ، وَلَيْسَ قِيَامُهُ بِغَيْرِهِ.

وَمِنَ الْمُحَالِ أَنْ يَحْصُلَ فِي الْوُجُودِ اثْنَانِ كَذَلِكَ، وَلَوْ كَانَ فِي الْوُجُودِ إِلَهَانِ؛ لَفَسَدَ نِظَامُهُ أَعْظَمَ فَسَادٍ وَاخْتَلَّ أَعْظَمَ اخْتِلَالٍ، كَمَا أَنَّهُ يَسْتَحِيلُ أَنْ يَكُونَ لَهُ فَاعِلَانِ مُتَسَاوِيَانِ كُلٌّ مِنْهُمَا مُسْتَقِلٌّ بِالْفِعْلِ؛ فَإِنَّ اسْتِقْلَالَهُمَا يُنَافِي اسْتِقْلَالَهُمَا، وَاسْتِقْلَالَ أَحَدِهِمَا يَمْنَعُ رُبُوبِيَّةَ الْآخَرِ.

فَتَوْحِيدُ الرُّبُوبِيَّةِ أَعْظَمُ دَلِيلٍ عَلَىٰ تَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ، وَلِذَلِكَ وَقَعَ الِاحْتِجَاجُ بِهِ فِي الْقُرْآنِ أَكْثَرَ مِمَّا وَقَعَ بِغَيْرِهِ؛ لِصِحَّةِ دَلَالَتِهِ وَظُهُورِهَا، وَقَبُولِ الْعُقُولِ وَالْفِطَرِ لَهَا، وَلِاعْتِرَافِ أَهْلِ الْأَرْضِ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ، وَكَذَلِكَ كَانَ عُبَّادُ الْأَصْنَامِ يُقِرُّونَ بِهِ وَيُنْكِرُونَ تَوْحِيدَ الْإِلَهِيَّةِ وَيَقُولُونَ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا﴾ [ص: ٥]، مَعَ اعْتِرَافِهِمْ بِأَنَّ اللهَ وَحْدَهُ هُوَ الْخَالِقُ لَهُمْ وَلِلسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا، وَأَنَّهُ الْمُتَفَرِّدُ بِمُلْكِ ذَلِكَ كُلِّهِ.

فَأَرْسَلَ اللهُ -تَعَالَىٰ- الرُّسُلَ تُذَكِّرُهُمْ بِمَا فِي فِطَرِهِمْ الْإِقْرَارُ بِهِ مِنْ تَوْحِيدِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّهُمْ لَوْ رَجَعُوا إِلَىٰ فِطَرِهِمْ وَعُقُولِهِمْ لَدَلَّتْهُمْ عَلَىٰ امْتِنَاعِ إِلَهٍ آخَرَ مَعَهُ وَاسْتِحَالَتِهِ وَبُطْلَانِهِ.

فَمَشْهَدُ الْأُلُوهِيَّةِ هُوَ مَشْهَدُ الْحُنَفَاءِ، وَهُوَ مَشْهَدٌ جَامِعٌ لِلْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَلِذَلِكَ كَانَ الِاسْمُ الدَّالُّ عَلَىٰ هَذَا الْمَعْنَىٰ هُوَ اسْمُ «اللهِ» ﷻ؛ فَإِنَّ هَذَا الِاسْمَ هُوَ الْجَامِعُ، وَلِهَذَا تُضَافُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ كُلُّهَا إِلَيْهِ؛ فَيُقَالُ: الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْعَزِيزُ، الْغَفَّارُ، الْقَهَّارُ.. مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ جَلَّوَعَلَا، وَلَا يُقَالُ: اللهُ مِنْ أَسْمَاءِ الرَّحْمَنِ؛ قَالَ اللهُ جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

فَهَذَا الْمَشْهَدُ تَجْتَمِعُ فِيهِ الْمَشَاهِدُ كُلُّهَا، وَكُلُّ مَشْهَدٍ سِوَاهُ فَإِنَّمَا هُوَ مَشْهَدٌ لِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِهِ، فَمَنِ اتَّسَعَ قَلْبُهُ لِمَشْهَدِ الْإِلَهِيَّةِ وَقَامَ بِحَقِّهِ مِنَ التَّعَبُّدِ الَّذِي هُوَ كَمَالُ الْحُبِّ بِكَمَالِ الذُّلِّ وَالتَّعْظِيمِ، وَالْقِيَامُ بِوَظَائِفِ الْعُبُودِيَّةِ؛ فَقَدْ تَمَّ لَهُ غِنَاهُ بِالْإِلَهِ الْحَقِّ، وَصَارَ مِنْ أَغْنَىٰ الْعِبَادِ، وَلِسَانُ حَالِ مِثْلِ هَذَا يَقُولُ:

غَنِيتُ بِلَا مَالٍ عَنِ النَّاسِ كُلِّهِمْ وَإِنَّ الْغِنَىٰ الْعَالِي عَنِ الشَّيْءِ لَا بِهِ(١)

فَيَا لَهُ مِنْ غِنًى مَا أَعْظَمَ خَطَرَهُ وَأَجَلَّ قَدْرَهُ، تَضَاءَلَتْ دُونَهُ الْمَمَالِكُ فَمَا دُونَهَا؛ فَصَارَتْ بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِ كَالظِّلِّ مِنَ الْحَامِلِ لَهُ، وَالطَّيْفِ الْمُوَافِي(٢) فِي الْمَنَامِ الَّذِي يَأْتِي بِهِ حَدِيثُ النَّفْسِ وَيَطْرُدُهُ الِانْتِبَاهُ مِنَ النَّوْمِ»(٣).

فَشُهُودُ الْعَبْدِ تَوْحِيدَ الرَّبِّ وَانْفِرَادَهُ بِالْخَلْقِ، وَنُفُوذَ مَشِيئَتِهِ، وَجَرَيَانَ قَضَائِهِ وَقَدَرِهِ يَفْتَحُ لَهُ بَابَ الِاسْتِعَانَةِ بِهِ، وَدَوَامِ الِالْتِجَاءِ إِلَيْهِ وَالِافْتِقَارِ إِلَيْهِ،

---

(١) البيت لفَقِيهِ المِلَّةِ وَنَاصِرِ الحَدِيْثِ: مُحَمَّدِ بنِ إِدْرِيْسَ الشَّافِعِيِّ (المتوفىٰ: ٢٠٤هـ)، وهو في «**ديوانه**»: (ص١١٤، القصيدة رقم ٤)، بلفظ: [غني] بدلا من [غنيت]، وبلفظ: [وَلَيسَ الغِنَىٰ إلا] بدلا من [وإِنَّ الغِنىٰ العالي]، من قصيدة يقول في مطلعها [من الطويل]:

بَلَوتُ بَنِي الدُّنْيَا فَلَمْ أَرَ فِيهِم سِوَىٰ مَنْ غَدَا وَالبُخْلُ مِلْءَ إِهَابِهِ

انظر: «**المستطرف**»: الباب الثالث والخمسون، (٢/ ٤٣).

(٢) (**الطَّيْفُ**): الْخَيَالُ وَالوَسَاوِسُ، و(الْمُوافِي): الْمُفاجِئُ.

انظر: «**لسان العرب**»: (٩/ ٢٢٥-٢٢٨)، مادة: (طوف)، و(١٥/ ٤٠١)، مادة: (وفى).

(٣) «**طريق الهجرتين**»: (١/ ٨٨-٩٣).

وَذَلِكَ يُدْنِيهِ مِنْ عَتَبَةِ الْعُبُودِيَّةِ، وَيَطْرَحُهُ بِالْبَابِ فَقِيرًا عَاجِزًا مِسْكِينًا، لَا يَمْلِكُ لِنَفْسِهِ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا.

وَشُهُودُهُ أَمْرَهُ -تَعَالَىٰ- وَنَهْيَهُ، وَثَوَابَهُ وَعِقَابَهُ؛ يُوجِبُ لَهُ الْجِدَّ وَالتَّشْمِيرَ وَبَذْلَ الْوُسْعِ، وَالْقِيَامَ بِالْأَمْرِ، وَالرُّجُوعَ عَلَىٰ نَفْسِهِ بِاللَّوْمِ، وَالِاعْتِرَافَ بِالتَّقْصِيرِ؛ فَيَكُونُ سَيْرُهُ بَيْنَ شُهُودِ الْعِزَّةِ وَالْحِكْمَةِ وَالْقُدْرَةِ الْكَامِلَةِ وَالْعِلْمِ السَّابِقِ، وَبَيْنَ شُهُودِهِ التَّقْصِيرَ وَالْإِسَاءَةَ مِنْهُ، وَتَطَلُّبَ عُيُوبِ نَفْسِهِ وَأَعْمَالِهَا؛ فَهَذَا هُوَ الْعَبْدُ الْمُوَفَّقُ الْمُعَانُ، الْمَلْطُوفُ بِهِ، الْمَصْنُوعُ لَهُ، الَّذِي أُقِيمَ فِي مُقَامِ الْعُبُودِيَّةِ وَضُمِنَ لَهُ التَّوْفِيقُ.

وَهَذَا هُوَ مَشْهَدُ الرُّسُلِ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ-؛ فَهُوَ مَشْهَدُ أَبِيهِمْ آدَمَ؛ إِذْ يَقُولُ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣].

وَمَشْهَدُ أَوَّلِ الرُّسُلِ نُوحٍ؛ إِذْ يَقُولُ: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧].

وَمَشْهَدُ إِمَامِ الْحُنَفَاءِ وَشَيْخِ الْأَنْبِيَاءِ إِبْرَاهِيمَ -صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ-؛ إِذْ يَقُولُ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ رَبِّ هَبْ لِى حُكْمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [الشعراء: ٧٨- ٨٣].

وَقَالَ فِي دُعَائِهِ: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

فَعَلِمَ ﷺ أَنَّ الَّذِي يَحُولُ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ هُوَ اللهُ؛ لَا رَبَّ غَيْرُهُ، فَسَأَلَهُ أَنْ يُجَنِّبَهُ وَبَنِيهِ عِبَادَةَ الْأَصْنَامِ.

وَهَذَا هُوَ مَشْهَدُ مُوسَىٰ؛ إِذْ يَقُولُ فِي خِطَابِهِ لِرَبِّهِ: ﴿أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ ۖ إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِي مَن تَشَآءُ ۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥].

أَيْ: إِنَّ ذَلِكَ مَا هُوَ إِلَّا امْتِحَانُكَ، مَا هُوَ إِلَّا اخْتِبَارُكَ، كَمَا يُقَالُ: فَتَنْتُ الذَّهَبَ: إِذَا امْتَحَنْتُهُ وَاخْتَبَرْتُهُ، وَلَيْسَ مِنَ الْفِتْنَةِ الَّتِي هِيَ الْفِعْلُ السَّيِّءُ؛ كَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَتَنُوا۟ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [البروج: ١٠]، وَكَمَا فِي قَوْلِهِ تَعَالَىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

فَإِنَّ تِلْكَ فِتْنَةُ الْمَخْلُوقِ؛ وَمُوسَىٰ أَعْلَمُ بِاللهِ أَنْ يُضِيفَ إِلَيْهِ -تَعَالَىٰ- هَذِهِ الْفِتْنَةَ، وَإِنَّمَا هِيَ كَالْفِتْنَةِ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا﴾ [طه: ٤٠]؛ أَيِ: ابْتَلَيْنَاكَ وَاخْتَبَرْنَاكَ وَصَرَّفْنَاكَ فِي الْأَحْوَالِ الَّتِي قَصَّهَا اللهُ -سُبْحَانَهُ- عَلَيْنَا مِنْ لَدُنْ وِلَادَتِهِ إِلَىٰ وَقْتِ خِطَابِهِ لَهُ وَإِنْزَالِ كِتَابِهِ عَلَيْهِ.

وَالْمَقْصُودُ أَنَّ مُوسَىٰ ﷺ شَهِدَ تَوْحِيدَ الرَّبِّ، وَانْفِرَادَهُ بِالْخَلْقِ وَالْحُكْمِ، وَفِعْلَ السُّفَهَاءِ وَمُبَاشَرَتَهُمُ الشِّرْكَ؛ فَتَضَرَّعَ إِلَيْهِ بِعِزَّتِهِ وَسُلْطَانِهِ، وَأَضَافَ الذَّنْبَ إِلَىٰ فَاعِلِهِ وَجَانِيهِ، وَمِنْ هَذَا قَوْلُهُ: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَغَفَرَ لَهُۥٓ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [القصص: ١٦].

وَهَذَا الْمَشْهَدُ هُوَ مَشْهَدُ ذِي النُّونِ؛ إِذْ يَقُولُ: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

فَوَحَّدَ رَبَّهُ -تَعَالَىٰ- وَنَزَّهَهُ عَنْ كُلِّ عَيْبٍ، وَأَضَافَ الظُّلْمَ إِلَىٰ نَفْسِهِ.

وَهَذَا مَشْهَدُ صَاحِبِ سَيِّدِ الِاسْتِغْفَارِ؛ إِذْ يَقُولُ فِي دُعَائِهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، خَلَقْتَنِي وَأَنَا عَبْدُكَ، وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ مَا اسْتَطَعْتُ، أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ، أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ وَأَبُوءُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي، فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ»(١). أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ.

فَأَقَرَّ ﷺ بِتَوْحِيدِ الرُّبُوبِيَّةِ الْمُتَضَمِّنِ لِانْفِرَادِهِ -سُبْحَانَهُ- بِالْخَلْقِ وَعُمُومِ الْمَشِيئَةِ وَنُفُوذِهَا، وَأَقَرَّ بِتَوْحِيدِ الْإِلَهِيَّةِ الْمُتَضَمِّنِ لِمَحَبَّتِهِ وَعِبَادَتِهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَالِاعْتِرَافِ بِالْعُبُودِيَّةِ الْمُتَضَمِّنِ لِلِافْتِقَارِ مِنْ جَمِيعِ الْوُجُوهِ إِلَيْهِ -سُبْحَانَهُ-.

ثُمَّ قَالَ: «**وَأَنَا عَلَىٰ عَهْدِكَ وَوَعْدِكَ**»؛ فَتَضَمَّنَ ذَلِكَ الْتِزَامَ شَرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَهُوَ الْعَهْدُ الَّذِي عَهِدَهُ إِلَىٰ عِبَادِهِ، وَتَصْدِيقُ وَعْدِهِ، وَهُوَ جَزَاؤُهُ وَثَوَابُهُ، فَتَضَمَّنَ الْتِزَامَ الْأَمْرِ وَالتَّصْدِيقَ بِالْمَوْعُودِ، وَهُوَ الْإِيمَانُ وَالِاحْتِسَابُ، ثُمَّ لَمَّا عَلِمَ أَنَّ الْعَبْدَ لَا يُوَفِّي هَذَا الْمَقَامَ حَقَّهُ الَّذِي يَصْلُحُ لَهُ -تَعَالَىٰ-؛ عَلَّقَ ذَلِكَ بِاسْتِطَاعَتِهِ وَقُدْرَتِهِ الَّتِي لَا يَتَعَدَّاهَا؛ فَقَالَ: «**مَا اسْتَطَعْتُ**»؛ أَيْ: أَلْتَزِمُ ذَلِكَ بِحَسَبِ اسْتِطَاعَتِي وَقُدْرَتِي.

---

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٩٧-٩٨ و١٣٠، رقم ٦٣٠٦ و٦٣٢٣)، من حديث: شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ رضي الله عنه.

ثُمَّ شَهِدَ الْمَشْهَدَيْنِ الْمَذْكُورَيْنِ؛ وَهُمَا مَشْهَدُ الْقُدْرَةِ وَالْعِزَّةِ، وَمَشْهَدُ التَّقْصِيرِ مِنْ نَفْسِهِ؛ فَقَالَ ﷺ: «**أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ مَا صَنَعْتُ**»؛ فَهَذِهِ الْكَلِمَةُ تَضَمَّنَتِ الْمَشْهَدَيْنِ مَعًا.

ثُمَّ أَضَافَ النِّعَمَ كُلَّهَا إِلَىٰ وَلِيِّهَا وَأَهْلِهَا وَالْمُبْتَدِئِ بِهَا، وَالذَّنْبَ إِلَىٰ نَفْسِهِ وَعَمَلِهِ؛ فَقَالَ: «**أَبُوءُ لَكَ بِنِعْمَتِكَ عَلَيَّ، وَأَبُوءُ بِذَنْبِي**»؛ فَأَنْتَ الْمَحْمُودُ وَالْمَشْكُورُ الَّذِي لَهُ الثَّنَاءُ كُلُّهُ وَالْإِحْسَانُ كُلُّهُ، وَمِنْهُ النِّعَمُ كُلُّهَا؛ فَلَكَ الْحَمْدُ كُلُّهُ، وَلَكَ الثَّنَاءُ كُلُّهُ، وَلَكَ الْفَضْلُ كُلُّهُ، وَأَنَا الْمُذْنِبُ الْمُسِيءُ، الْمُعْتَرِفُ بِذَنْبِهِ، الْمُقِرُّ بِخَطَئِهِ؛ كَمَا قَالَ بَعْضُ الْعَارِفِينَ[1]: «الْعَارِفُ يَسِيرُ بَيْنَ مُشَاهَدَةِ الْمِنَّةِ مِنَ اللهِ، وَمُطَالَعَةِ عَيْبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ».

فَشُهُودُ الْمِنَّةِ يُوجِبُ لَهُ الْمَحَبَّةَ لِرَبِّهِ -سُبْحَانَهُ-، وَحَمْدَهُ، وَالثَّنَاءَ عَلَيْهِ، وَمُطَالَعَةُ عَيْبِ النَّفْسِ وَالْعَمَلِ تُوجِبُ اسْتِغْفَارَهُ، وَدَوَامَ تَوْبَتِهِ، وَتَضَرُّعَهُ، وَاسْتِكَانَتَهُ لِرَبِّهِ -سُبْحَانَهُ-.

ثُمَّ لَمَّا قَامَ هَذَا بِقَلْبِ الدَّاعِي وَتَوَسَّلَ إِلَيْهِ بِهَذِهِ الْوَسَائِلِ، قَالَ: «**فَاغْفِرْ لِي؛ فَإِنَّهُ لَا يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا أَنْتَ**»»[2].

«**وَجِمَاعُ الْأَمْرِ فِي ذَلِكَ**: إِنَّمَا هُوَ بِتَكْمِيلِ عُبُودِيَّةِ اللهِ جَلَّوَعَلَا فِي الظَّاهِرِ وَالْبَاطِنِ؛ فَتَكُونُ حَرَكَاتُ نَفْسِهِ وَحَرَكَاتُ جِسْمِهِ كُلُّهَا فِي مَحْبُوبَاتِ اللهِ؛ فَكَمَالُ

---

(١) هو أبو إسماعيل الأنصاري الهروي (المتوفى: ٤٨١هـ)، في «**منازل السائرين**»، كما في «مدارج السالكين»: (١/ ٢٣٦).

(٢) «**طريق الهجرتين**»: (١/ ٣٥٥-٣٥٩).

عُبُودِيَّةِ الْعَبْدِ مُوَافَقَتُهُ لِرَبِّهِ فِي مَحَبَّةِ مَا أَحَبَّ، وَفِي بَذْلِ الْجُهْدِ فِي فِعْلِهِ، وَفِي مُوَافَقَتِهِ فِي كَرَاهَةِ مَا كَرِهَهُ مَعَ بَذْلِ الْجُهْدِ فِي تَرْكِهِ، وَهَذَا إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّفْسِ الْمُطْمَئِنَّةِ، لَا لِلْأَمَّارَةِ وَلَا لِلَّوَّامَةِ؛ فَهَذَا كَمَالٌ مِنْ جِهَةِ الْإِرَادَةِ وَالْعَمَلِ.

وَأَمَّا مِنْ جِهَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ؛ فَأَنْ تَكُونَ بَصِيرَتُهُ مُنْفَتِحَةً فِي مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ، لَهُ شُهُودٌ خَاصٌّ فِي الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ مُطَابِقٌ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، لَا مُخَالِفٌ لَهُ؛ فَإِنَّهُ بِحَسَبِ مُخَالَفَتِهِ لَهُ فِي ذَلِكَ يَقَعُ الِانْحِرَافُ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ قَائِمًا بِأَحْكَامِ الْعُبُودِيَّةِ الْخَاصَّةِ، الَّتِي تَقْتَضِيهَا كُلُّ صِفَةٍ بِخُصُوصِهَا، وَهَذَا سُلُوكُ الْأَكْيَاسِ الَّذِينَ هُمْ خُلَاصَةُ الْعَالَمِ، وَالسَّالِكُونَ عَلَىٰ هَذَا الدَّرْبِ أَفْرَادٌ مِنَ الْعَالَمِ.

طَرِيقٌ سَهْلٌ قَرِيبٌ مُوصِلٌ، طَرِيقٌ آمِنٌ، أَكْثَرُ السَّالِكِينَ فِي غَفْلَةٍ عَنْهُ، لَكِنْ يَسْتَدْعِي رُسُوخًا فِي الْعِلْمِ وَمَعْرِفَةً تَامَّةً بِهِ، وَإِقْدَامًا عَلَىٰ رَدِّ الْبَاطِلِ الْمُخَالِفِ لَهُ -وَلَوْ قَالَهُ مَنْ قَالَهُ-، وَلَيْسَ عِنْدَ أَكْثَرِ النَّاسِ سِوَىٰ رُسُومٍ تَلَقَّوْهَا عَنْ قَوْمٍ مُعَظَّمِينَ عِنْدَهُمْ، ثُمَّ لِإِحْسَانِ ظَنِّهِمْ بِهِمْ؛ قَدْ وَقَفُوا عِنْدَ أَقْوَالِهِمْ وَلَمْ يَتَجَاوَزُوهَا إِلَىٰ غَيْرِهَا، فَصَارَتْ حِجَابًا لَهُمْ وَأَيُّ حِجَابٍ.

فَمَنْ فَتَحَ اللهُ بَصِيرَةَ قَلْبِهِ وَإِيمَانِهِ حَتَّىٰ خَرَقَهَا وَجَاوَزَهَا إِلَىٰ مُقْتَضَىٰ الْوَحْيِ وَالْفِطْرَةِ وَالْعَقْلِ؛ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا، وَلَا يُخَافُ عَلَيْهِ مِنْ ضَعْفِ هِمَّتِهِ، فَإِذَا انْضَافَ إِلَىٰ ذَلِكَ الْفَتْحِ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ؛ فَذَاكَ السَّابِقُ حَقًّا، وَاحِدُ النَّاسِ فِي زَمَانِهِ، لَا يُلْحَقُ شَأْوُهُ وَلَا يُشَقُّ غُبَارُهُ، فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ مَنْ يَتَلَقَّىٰ أَحْوَالَهُ وَوَارِدَاتِهِ عَنِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، وَبَيْنَ مَنْ يَتَلَقَّاهَا عَنِ الْأَوْضَاعِ الِاصْطِلَاحِيَّةِ وَالرُّسُومِ، أَوْ عَنْ مُجَرَّدِ ذَوْقِهِ وَوَجْدِهِ، إِذَا اسْتَحْسَنَ شَيْئًا قَالَ: هَذَا هُوَ الْحَقُّ.

فَالسَّيْرُ إِلَىٰ اللهِ مِنْ طَرِيقِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ شَأْنُهُ عَجَبٌ، وَفَتْحُهُ عَجَبٌ، صَاحِبُهُ قَدْ سَبَقَ السُّعَاةَ وَهُوَ مُسْتَلْقٍ عَلَىٰ فِرَاشِهِ غَيْرُ تَعِبٍ وَلَا مَكْدُودٍ، وَلَا مُشَتَّتٍ عَنْ وَطَنِهِ، وَلَا مُشَرَّدٍ عَنْ سَكَنِهِ: ﴿وَتَرَى ٱلْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل:٨٨].

وَلَيْسَ الْعَجَبُ مِنْ سَائِرٍ فِي لَيْلِهِ وَنَهَارِهِ وَهُوَ فِي السُّرَىٰ(١) لَمْ يَبْرَحْ مِنْ مَكَانِهِ، وَإِنَّمَا الْعَجَبُ مِنْ سَاكِنٍ لَا يُرَىٰ عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَقَدْ قَطَعَ الْمَرَاحِلَ وَالْمَفَاوِزَ!!

فَسَائِرٌ قَدْ رَكِبَتْهُ نَفْسُهُ؛ فَهُوَ حَامِلُهَا، سَائِرٌ بِهَا مَلْبُوكٌ(٢)، يُعَاقِبُهَا وَتُعَاقِبُهُ، وَيَجُرُّهَا وَتَهْرُبُ مِنْهُ، وَيَخْطُو بِهَا خُطْوَةً إِلَىٰ أَمَامِهِ؛ فَتَجْذِبُهُ خُطْوَتَيْنِ إِلَىٰ وَرَائِهِ، فَهُوَ مَعَهَا فِي جَهْدٍ، وَهِيَ مَعَهُ كَذَلِكَ.

وَسَائِرٌ قَدْ رَكِبَ نَفْسَهُ، وَمَلَكَ عِنَانَهَا؛ فَهُوَ يَسُوقُهَا كَيْفَ شَاءَ وَأَيْنَ شَاءَ، لَا تَلْتَوِي عَلَيْهِ، وَلَا تَنْجَذِبُ وَلَا تَهْرُبُ مِنْهُ، بَلْ هِيَ مَعَهُ كَالْأَسِيرِ الضَّعِيفِ فِي يَدِ مَالِكِهِ وَآسِرِهِ، وَكَالدَّابَّةِ الرَّيِّضَةِ(٣) الْمُنْقَادَةِ فِي يَدِ سَائِسِهَا وَرَاكِبِهَا؛ فَهِيَ مُنْقَادَةٌ

---

(١) (**السُّرىٰ**): السير ليلا، وكلُّ شيءٍ طرق ليلًا فهو سارٍ، والمعنىٰ: وهو في سيره ليلا.
انظر: «**لسان العرب**»: (٤/ ٣٨٩)، مادة: (سير).

(٢) (**ملبوك**): مختلط ومتلبس بها، قال ابن فارس: «اللَّامُ وَالْبَاءُ وَالْكَافُ أَصْلٌ صَحِيحٌ يَدُلُّ عَلَىٰ خَلْطِ شَيْءٍ بِشَيْءٍ».
انظر: «**مقاييس اللغة**»: (٥/ ٢٣١)، و«**لسان العرب**»: (١٠/ ٤٨٢)، مادة: (لبك).

(٣) (**الريضة**)؛ أي: المروضة المذللة السهلة، مِنْ رِيَاضَةِ الدَّابَّةِ.
=

مَعَهُ حَيْثُ قَادَهَا، فَإِذَا رَامَ التَّقَدُّمَ جَمَزَتْ بِهِ(١) وَأَسْرَعَتْ، فَإِذَا أَرْسَلَهَا سَارَتْ بِهِ وَجَرَتْ فِي الْحَلْبَةِ إِلَىٰ الْغَايَةِ، وَلَا يَرُدُّهَا شَيْءٌ، فَتَسِيرُ بِهِ وَهُوَ سَاكِنٌ عَلَىٰ ظَهْرِهَا، لَيْسَ كَالَّذِي نَزَلَ عَنْهَا وَهُوَ يَجُرُّهَا بِلِجَامِهَا، وَيَشْحَطُهَا وَلَا تَنْشَحِطُ(٢).

فَشَتَّانَ مَا بَيْنَ الْمُسَافِرَيْنِ!!

فَتَأَمَّلْ هَذَا الْمَثَلَ؛ فَإِنَّهُ مُطَابِقٌ لِحَالِ السَّائِرِينَ، وَاللهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ»(٣).

=

انظر: «**لسان العرب**»: (٧/ ١٦٤)، مادة: (روض).

(١) (**الجَمْزُ**): ضَرْبٌ مِنَ العدو دون السَرِيع.

انظر: «**لسان العرب**»: (٥/ ٣٢٣)، مادة: (جمز).

(٢) (**يشْحَطُها ولا تَنْشَحِط**)؛ أي: يسحبها ولا تنسحب.

انظر: «**تكملة المعاجم العربية**»: (٦/ ٢٦٨).

(٣) «**طريق الهجرتين**»: (١/ ٤٦٨-٤٧١).

ثَمَرَاتُ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَيَاتِ صِفَاتِ اللهِ جَلَّوَعَلَا

«**وَهَاهُنَا سِرٌّ بَدِيعٌ؛ وَهُوَ**: أَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ بِصِفَةٍ مِنْ صِفَاتِ الرَّبِّ -تَعَالَىٰ- أَدْخَلَتْهُ تِلْكَ الصِّفَةُ عَلَيْهِ وَأَوْصَلَتْهُ إِلَيْهِ جَلَّوَعَلَا.

وَالرَّبُّ -تَعَالَىٰ- يُحِبُّ أَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ، وَيُحِبُّ مُقْتَضَىٰ صِفَاتِهِ وَظُهُورَ آثَارِهَا فِي الْعَبْدِ؛ فَإِنَّهُ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، كَرِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْكَرَمِ، عَلِيمٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْعِلْمِ، وِتْرٌ يُحِبُّ أَهْلَ الْوِتْرِ، قَوِيٌّ، وَالْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ أَحَبُّ إِلَىٰ اللهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ، صَبُورٌ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ، شَكُورٌ يُحِبُّ الشَّاكِرِينَ»(١).

«وَهُوَ ﷻ رَحِيمٌ يُحِبُّ الرُّحَمَاءَ، وَإِنَّمَا يَرْحَمُ مِنْ عِبَادِهِ الرُّحَمَاءَ، وَهُوَ سِتِّيرٌ يُحِبُّ مَنْ يَسْتُرُ عَلَىٰ عِبَادِهِ، وَعَفُوٌّ يُحِبُّ مَنْ يَعْفُو عَنْهُمْ، وَغَفُورٌ يُحِبُّ مَنْ يَغْفِرُ لَهُمْ، وَلَطِيفٌ يُحِبُّ اللَّطِيفَ مِنْ عِبَادِهِ، وَيُبْغِضُ الْفَظَّ الْغَلِيظَ الْقَاسِيَ الْجَعْظَرِيَّ(٢) الْجَوَّاظَ(٣)، وَرَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَحَلِيمٌ يُحِبُّ الْحِلْمَ، وَبَرٌّ يُحِبُّ

---

(١) «**عدة الصابرين**»: (ص٨٥)، باختصار يسير.

(٢) **الجَعْظَرِيُّ**: الفَظُّ الغلِيظ المُتكَبّر، الَّذِي يَتَّفِخ بِمَا ليْس عِنْدَهُ وَفِيهِ قِصَر.

انظر: «**لسان العرب**»: (٤/ ١٤٢)، مادة: (جعظر).

(٣) **الجَوَّاظ**: الجَمُوع المَنُوع الفاجر.

=

الْبِرَّ وَأَهْلَهُ، وَعَدْلٌ يُحِبُّ الْعَدْلَ، وَقَابِلُ الْمَعَاذِيرِ يُحِبُّ مَنْ يَقْبَلُ مَعَاذِيرَ عِبَادِهِ، وَيُجَازِي عَبْدَهُ بِحَسَبِ هَذِهِ الصِّفَاتِ فِيهِ وُجُودًا وَعَدَمًا.

فَمَنْ عَفَا؛ عَفَا عَنْهُ، وَمَنْ غَفَرَ؛ غَفَرَ لَهُ، وَمَنْ سَامَحَ؛ سَامَحَهُ، وَمَنْ حَاقَقَ؛ حَاقَقَهُ، وَمَنْ رَفَقَ بِعِبَادِهِ؛ رَفَقَ بِهِ، وَمَنْ رَحِمَ خَلْقَهُ رَحِمَهُ، وَمَنْ أَحْسَنَ إِلَيْهِمْ أَحْسَنَ إِلَيْهِ، وَمَنْ جَادَ عَلَيْهِمْ جَادَ عَلَيْهِ، وَمَنْ نَفَعَهُمْ نَفَعَهُ، وَمَنْ سَتَرَهُمْ سَتَرَهُ، وَمَنْ صَفَحَ عَنْهُمْ صَفَحَ عَنْهُ، وَمَنَ تَتَبَّعَ عَوْرَتَهُمْ تَتَبَّعَ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ هَتَكَهُمْ هَتَكَهُ وَفَضَحَهُ، وَمَنْ مَنَعَهُمْ خَيْرَهُ مَنَعَهُ خَيْرَهُ، وَمَنْ شَاقَّ شَاقَّ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِهِ، وَمَنْ مَكَرَ مَكَرَ بِهِ، وَمَنْ خَادَعَ خَادَعَهُ، وَمَنْ عَامَلَ خَلْقَهُ بِصِفَةٍ عَامَلَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- بِتِلْكَ الصِّفَةِ بِعَيْنِهَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ.

فَاللهُ -تَعَالَىٰ- لِعَبْدِهِ عَلَىٰ حَسَبِ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ لِخَلْقِهِ، وَلِهَذَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: «**مَنْ سَتَرَ مُسلمًا سَتَرَهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ نَفَّسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ الدُّنْيَا نَفَّسَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كُرَبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ يَسَّرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- حِسَابَهُ**»(١).

«**مَنْ أَقَالَ نَادِمًا أَقَالَ اللهُ -تَعَالَىٰ- عَثْرَتَهُ**»(٢).

=

انظر: «**لسان العرب**»: (٧/ ٤٣٩)، مادة: (جوظ).

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٠٧٤، رقم ٢٦٩٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، بلفظ: «...، **وَمَنْ يَسَّرَ عَلَىٰ مُعْسِرٍ، يَسَّرَ اللهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ**،...».

(٢) أخرجه أبو داود: (٣/ ٢٧٤، رقم ٣٤٦٠)، وابن ماجه: (٢/ ٧٤١، رقم ٢١٩٩)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

=

«**مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِرًا أَوْ وَضَعَ عَنْهُ أَظَلَّهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- فِي ظِلِّ عِرْشِهِ**»(١)؛ لِأَنَّهُ لَمَّا جَعَلَهُ فِي ظِلِّ الْإِنْظَارِ وَالصَّبْرِ، وَنَجَّاهُ مِنْ حَرِّ الْمُطَالَبَةِ وَحَرَارَةِ تَكَلُّفِ الْأَدَاءِ مَعَ عُسْرَتِهِ وَعَجْزِهِ؛ نَجَّاهُ اللهُ -تَعَالَىٰ- مِنْ حَرِّ الشَّمْسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَىٰ ظِلِّ عَرْشِهِ.

وَكَذَلِكَ الْحَدِيثُ الَّذِي فِي التِّرْمِذِيِّ وَغَيْرِهِ(٢) -وَهُوَ حَدِيثٌ حَسَنٌ- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ فِي خُطْبَتِهِ يَوْمًا: «**يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ، لَا تُؤْذُوا الْمُسْلِمِينَ، وَلَا تَتَبَّعُوا عَوْرَاتِهِمْ؛ فَإِنَّهُ مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيهِ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ تَتَبَّعَ اللهُ عَوْرَتَهُ يَفْضَحْهُ وَلَوْ فِي جَوْفِ بَيْتِهِ**».

اللَّهُمَّ إِنَّكَ حَلِيمٌ حَيِيٌّ سِتِّيرٌ؛ فَاسْتُرْنَا بِسِتْرِكَ الْجَمِيلِ، وَاجْعَلْ تَحْتَ السِّتْرِ مَا يُرْضِيكَ.

فَكَمَا تَدِينُ تُدَانُ، وَكُنْ كَيْفَ شِئْتَ؛ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- لَكَ كَمَا تَكُونُ أَنْتَ لَهُ وَلِعِبَادِهِ، وَلَمَّا أَظْهَرَ الْمُنَافِقُونَ الْإِسْلَامَ وَأَسَرُّوا الْكُفْرَ؛ أَظْهَرَ اللهُ -تَعَالَىٰ- لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ نُورًا عَلَىٰ الصِّرَاطِ، وَأَظْهَرَ لَهُمْ أَنَّهُمْ يَجُوزُونَ الصِّرَاطَ، وَأَسَرَّ لَهُمْ أَنْ يُطْفِئَ نُورَهُمْ وَأَنْ يُحَالَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الصِّرَاطِ مِنْ جِنْسِ أَعْمَالِهِمْ.

=

والحديث صححه الألباني في «**إرواء الغليل**»: (٥/ ١٨٢، رقم ١٣٣٢).

(١) أخرجه مسلم: (٤/ ٢٣٠١-٢٣٠٢، رقم ٣٠٠٦)، من حديث: أَبِي الْيَسَرِ رضي الله عنه.

(٢) «**جامع الترمذي**»: (٤/ ٣٧٨، رقم ٢٠٣٢)، من حديث: ابْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ».

والحديث حسنه الألباني في «**غاية المرام**»: (ص٢٤٠، رقم ٤٢٠).

وَكَذَلِكَ مَنْ يُظْهِرُ لِلْخَلْقِ خِلَافَ مَا يَعْلَمُهُ اللهُ مِنْهُ؛ فَإِنَّ اللهَ -تَعَالَىٰ- يُظْهِرُ لَهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَسْبَابَ الْفَلَاحِ وَالنَّجَاحِ وَالْفَوْزِ وَيُبْطِنُ لَهُ خِلَافَهَا، وَفِي الْحَدِيثِ الَّذِي رَوَاهُ مُسْلِمٌ: «**مَنْ رَاءَىٰ رَاءَىٰ اللهُ بِهِ، ومَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ**»(١)»(٢).

فَنَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَرْزُقَنَا الْإِخْلَاصَ فِي الْقَصْدِ وَالنِّيَّةِ، وَالْإِحْسَانَ فِي الْقَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَأَنْ يَجْعَلَنَا مِنَ الْخَالِصِينَ الْمُخْلِصِينَ الْمُخْلَصِينَ، إِنَّهُ -تَعَالَىٰ- عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

(١) أخرجه البخاري: (١١/ ٣٣٥-٣٣٦، رقم ٦٤٩٩)، ومسلم: (٤/ ٢٢٨٩-٢٢٩٠، رقم ٢٩٨٧)، من حديث: جندب رضي الله عنه.

(٢) «**الوابل الصيب**»: (ص١٤٠-١٤٢).

أَسْمَاءَ اللهِ الْحُسْنَى وَصِفَاتُهُ الْعُلَى مَدَائِحُ وَثَنَاءٌ

«فَمِنَ الْمُتَعَيِّنِ عَلَىٰ مَنْ لَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ حَلَاوَةُ هَذَا الْخِطَابِ وَجَلَالَتُهُ وَلُطْفُ مَوْقِعِهِ، وَجَذْبُهُ لِلْقُلُوبِ وَالْأَرْوَاحِ، وَمُخَالَطَتُهُ لَهَا؛ أَنْ يُعَالِجَ قَلْبَهُ بِالتَّقْوَىٰ -فَإِذَا سَمِعَ الْقُرْآنَ وَلَمْ يُبَاشِرْ قَلْبَهُ هَذَا الَّذِي مَرَّ ذِكْرُهُ؛ فَلْيُعَالِجْ قَلْبَهُ بِالتَّقْوَىٰ؛ وَعَلَيْهِ أَنْ يَسْتَفْرِغَ مِنْ قَلْبِهِ الْمَوَادَّ الْفَاسِدَةَ الَّتِي حَالَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَظِّهِ مِنْ ذَلِكَ.

وَعَلَيْهِ أَنْ يَتَعَرَّضَ إِلَىٰ الْأَسْبَابِ الَّتِي يَنَالُهُ بِهَا؛ مِنْ صِدْقِ الرَّغْبَةِ وَاللَّجْءِ إِلَىٰ اللهِ أَنْ يُحْيِيَ قَلْبَهُ، وَيُزَكِّيَهِ، وَيَجْعَلَ فِيهِ الْإِيمَانَ وَالْحِكْمَةَ؛ فَالْقَلْبُ الْمَيِّتُ لَا يَذُوقُ طَعْمَ الْإِيمَانِ وَلَا يَجِدُ حَلَاوَتَهُ، وَلَا يَتَمَتَّعُ بِالْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ.

وَمَنْ أَرَادَ مُطَالَعَةَ أُصُولِ النِّعَمِ؛ فَلْيُسِمْ(١) سَرْحَ الْفِكْرِ فِي رِيَاضِ الْقُرْآنِ، وَلْيَتَأَمَّلْ مَا عَدَّدَ اللهُ فِيهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَتَعَرَّفَ بِهَا إِلَىٰ عِبَادِهِ مِنْ أَوَّلِ الْقُرْآنِ إِلَىٰ آخِرِهِ،

---

(١) (**فَلْيُسِمْ**)؛ أَيْ: فَلْيُرسِلْ فِكْره لِيَرْعَىٰ فِي رِيَاضِ القُرْآنِ، وَ(**السَّوْمُ**): هُوَ إِرْسَالُ الْمَاشِيَةِ فِيْ الْأَرْضِ تَرْعَىٰ فِيهَا، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [النحل: ١٠]، وأصل (**السَّوْمُ**): الذِّهَاب في ابتغاء الشيء، و(**السَّرْحُ**): الْإِبِل الَّتِي تَسْرَحُ للرعي بِالْغَدَاةِ، يُقَالُ: (سَرحْتُ الماشية)، أَي: أَخرجتها بالغَداةِ إِلَىٰ الْمَرْعَىٰ.

=

حَتَّىٰ خَلْقَ النَّارِ، وَابْتِلَاءَهُمْ بِإِبْلِيسَ وَحِزْبِهِ، وَتَسْلِيطَ أَعْدَائِهِمْ عَلَيْهِمْ، وَامْتِحَانَهُمْ بِالشَّهَوَاتِ وَالْإِرَادَاتِ وَالْهَوَىٰ؛ لِتَعْظُمَ النِّعْمَةُ عَلَيْهِمْ بِمُخَالَفَتِهَا وَمُحَارَبَةِ أَعْدَائِهِ.

فَلِلهِ عَلَىٰ أَوْلِيَائِهِ وَعِبَادِهِ أَتَمُّ نِعْمَةٍ وَأَكْمَلُهَا فِي كُلِّ مَا خَلَقَهُ مِنْ مَحْبُوبٍ وَمَكْرُوهٍ وَنِعْمَةٍ وَمِحْنَةٍ، وَفِي كُلِّ مَا أَحْدَثَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَقَائِعِهِ بِأَعْدَائِهِ، وَإِكْرَامِهِ لِأَوْلِيَائِهِ، وَفِي كُلِّ مَا قَضَاهُ وَقَدَّرَهُ، وَتَفْصِيلُ ذَلِكَ لَا تَفِي بِهِ أَقْلَامُ الدُّنْيَا وَأَوْرَاقُهَا وَلَا قُوَىٰ الْعِبَادِ، وَإِنَّمَا هُوَ التَّنْبِيهُ وَالْإِشَارَةُ.

مَنِ اسْتَقْرَأَ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَىٰ وَجَدَهَا مَدَائِحَ وَثَنَاءً تَقْصُرُ بَلَاغَاتُ الْوَاصِفِينَ عَنْ بُلُوغِ كُنْهِهَا، وَتَعْجِزُ الْأَوْهَامُ عَنِ الْإِحَاطَةِ بِالْوَاحِدِ مِنْهَا، وَمَعَ ذَلِكَ فَلِلهِ -سُبْحَانَهُ- مُحَامِدُ وَمَدَائِحُ وَأَنْوَاعٌ مِنَ الثَّنَاءِ؛ لَمْ تَتَحَرَّكْ بِهَا الْخَوَاطِرُ، وَلَا هَجَسَتْ فِي الضَّمَائِرُ، وَلَا لَاحَتْ لِمُتَوَسِّمٍ(١)، وَلَا سَنَحَتْ فِي فِكْرٍ.

فَفِي دُعَاءِ أَعْرَفِ الْخَلْقِ بِرَبِّهِ -تعالىٰ- وَأَعْلَمِهِمْ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَحَامِدِهِ: «**أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ؛ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي، وَجَلَاءَ حُزْنِي، وَذَهَابَ هَمِّي وَغَمِّي**»(٢).

=

انظر: «**لسان العرب**»: (٢/ ٤٧٨)، مادة: (سرح)، و(١٢/ ٣١٠-٣١٢)، مادة: (سوم).

(١) (**المتوسم**): المتفرس المتفكر الناظر في السمة الدالة علىٰ الشيء، يقال: تَوَسَّمْت فِيهِ الْخَيْرَ، أَي: تفرَّسْت، ومنه قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [**الحجر**: ٧٥].

انظر: «**لسان العرب**»: (١٢/ ٦٣٦)، مادة: (وسم).

(٢) أخرجه أحمد: (١/ ٣٩١ و٤٥٢)، وابن حبان: (٣/ ٢٥٣، رقم ٩٧٢)، والحاكم: (١/ ٥٠٩)، من حديث: ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه.

=

وَفِي «الصَّحِيحِ»(١) عَنْهُ ﷺ فِي حَدِيثِ الشَّفَاعَةِ لَمَّا يَسْجُدُ بَيْنَ يَدَيْ رَبِّهِ، قَالَ: «**فَيَفْتَحُ عَلَيَّ مِنْ مَحَامِدِهِ بِشَيْءٍ لَا أُحْسِنُهُ الْآنَ**»، وَهُوَ رَسُولُ اللهِ وَأَعْرَفُ الْخَلْقِ بِاللهِ، وَبِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَمَحَامِدِهِ.

وَكَانَ يَقُولُ فِي سُجُودِهِ: «**أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَبِعَفْوِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَىٰ نَفْسِكَ**»(٢).

فَلَا يُحْصِي أَحَدٌ مِنْ خَلْقِهِ ثَنَاءً عَلَيْهِ الْبَتَّةَ، وَلَهُ أَسْمَاءٌ وَأَوْصَافٌ وَحَمْدٌ وَثَنَاءٌ؛ لَا يَعْلَمُهُ مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلَا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَنِسبَةُ مَا يَعْلَمُ الْعِبَادُ مِنْ ذَلِكَ إِلَىٰ مَا لَا يَعْلَمُونَهُ كَنُقْرَةِ عُصْفُورٍ فِي بَحْرٍ!!»(٣).

«وَهَذَا الْقُرْآنُ الْمَجِيدُ عُمْدَتُهُ وَمَقْصُودُهُ الْإِخْبَارُ عَنْ صِفَاتِ الرَّبِّ -سُبْحَانَهُ- وَأَسْمَائِهِ وَأَفْعَالِهِ، وَأَنْوَاعِ حَمْدِهِ وَالثَّنَاءِ عَلَيْهِ، وَالْإِنْبَاءِ عَنْ عَظَمَتِهِ وَعِزَّتِهِ وَحِكْمَتِهِ، وَإِبْدَاعِ صُنْعِهِ وَالتَّقَدُّمِ إِلَىٰ عِبَادِهِ بِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ عَلَىٰ أَلْسِنَةِ أَنْبِيَائِهِ وَرُسُلِهِ، وَتَصْدِيقِهِمْ بِمَا أَقَامَهُ مِنَ الشَّوَاهِدِ وَالدَّلَالَاتِ عَلَىٰ صِدْقِهِمْ، وَبَرَاهِينِ ذَلِكَ وَدَلَائِلِهِ وَتَبْيِينِ مُرَادِهِ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ.

=

والحديث صححه الألباني في «**الصحيحة**»: (١/ ٣٨٣-٣٨٤، رقم ١٩٩).

(١) «**صحيح البخاري**»: (٨/ ٣٩٥، رقم ٤٧١٢)، و«**صحيح مسلم**»: (١/ ١٨٤-١٨٦، رقم ١٩٤)، من حديث: أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم: (١/ ٣٥٢، رقم ٤٨٦)، من حديث: عَائِشَةَ رضي الله عنها.

(٣) «**طريق الهجرتين**»: (١/ ٢٨٥-٢٨٨).

وَأَنَّ أَسْمَاءَهُ -تَعَالَىٰ- الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ هِيَ مَوْضِعُ الْحَمْدِ»(١).

«وَأَنَّ لَهُ الْمُلْكَ التَّامَّ الَّذِي لَا يَخْرُجُ عَنْهُ شَيْءٌ مِنَ الْمَوْجُودَاتِ؛ أَعْيَانِهَا وَأَفْعَالِهَا، وَالْحَمْدُ التَّامُّ الَّذِي وَسِعَ كُلَّ مَعْلُومٍ، وَشَمِلَ كُلَّ مَقْدُورٍ، وَلَهُ -تَعَالَىٰ- فِي كُلِّ مَا خَلَقَهُ وَشَرَعَهُ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ وَنِعْمَةٌ سَابِغَةٌ، لِأَجْلِهَا خَلَقَ وَأَمَرَ، وَيَسْتَحِقُّ أَنْ يُثْنَىٰ عَلَيْهِ وَيُحْمَدَ لِأَجْلِهَا.

وَكَمَا يُثْنِي عَلَيْهِ أَعْرَفُ الْخَلْقِ بِهِ ﷺ وَيَحْمَدُهُ لِأَسْمَائِهِ الْحُسْنَىٰ وَلِصِفَاتِهِ الْعُلَىٰ، فَهُوَ -سُبْحَانَهُ- الْمَحْمُودُ عَلَىٰ ذَلِكَ كُلِّهِ أَتَمَّ حَمْدٍ وَأَكْمَلَهُ؛ لِمَا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ صِفَاتُهُ مِنَ الْكَمَالِ، وَأَسْمَاؤُهُ مِنَ الْحُسْنِ، وَأَفْعَالُهُ مِنَ الْحِكَمِ وَالْغَايَاتِ الْمُقْتَضِيَةِ لِحَمْدِهِ، الْمُطَابِقَةِ لِحِكْمَتِهِ، الْمُوَافِقَةِ لِمَحَابِّهِ؛ فَإِنَّهُ -سُبْحَانَهُ- كَامِلُ الذَّاتِ، كَامِلُ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ، لَا يَصْدُرُ عَنْهُ إِلَّا كُلُّ فِعْلٍ كَرِيمٍ مُطَابِقٍ لِلْحِكْمَةِ، مُوجِبٍ لِلْحَمْدِ، مُرَتَّبٌ عَلَيْهِ مِنْ مَحَابِّهِ مَا فُعِلَ لِأَجْلِهِ»(٢).

❁ ❁ ❁

(١) المصدر السابق: (١/ ٣٠٦).

(٢) المصدر السابق: (١/ ٣٢٢-٣٢٣).

تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الْحَقَّةِ بِمَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ

اللهُ ﷻ لَا يُعْرَفُ إِلَّا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمَنْ لَيْسَتْ لَهُ مُشَارَكَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ الْعَظِيمِ مِنْ أَبْوَابِ التَّوْحِيدِ، وَالنَّوْعِ الْجَلِيلِ مِنْهُ؛ فَلَمْ يَعْرِفْ رَبَّهُ!!

وَمَنْ تَوَفَّرَ عَلَىٰ هَذَا الْبَابِ؛ تَعَلُّمًا وَمَعْرِفَةً، وَتَحَقُّقًا وَتَطْبِيقًا، وَتَعَبُّدًا وَرِقًّا، مَنْ تَوَفَّرَ عَلَىٰ ذَلِكَ كَذَلِكَ؛ فَهُوَ الْعَبْدُ حَقًّا؛ لِأَنَّ اللهَ -جَلَّتْ قُدْرَتُهُ وَتَقَدَّسَتْ أَسْمَاؤُهُ- أَخْبَرَنَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: أَنَّهُ خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ، وَخَلَقَ مِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ، وَجَعَلَ الْأَمْرَ الْقَدَرِيَّ وَالْأَمْرَ الشَّرْعِيَّ مُتَنَزِّلًا بَيْنَهُنَّ لِغَايَةٍ ذَكَرَهَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينُ؛ وَهِيَ أَنْ نَعْرِفَهُ جَلَّوَعَلَا بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ.

وَلَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَحَقَّقَ عَبْدٌ بِإِلَهِيَّةٍ -أَيْ: بِعُبُودِيَّةٍ- لِرَبِّهِ إِلَّا إِذَا عَرَفَهُ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ؛ لِذَلِكَ قَالَ رَبُّنَا جَلَّوَعَلَا: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾؛ مِثْلَهُنَّ عَدَدًا، لَا صِفَةً وَقَدْرًا، ﴿يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢].

فَاللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ إِنَّمَا خَلَقَ الْخَلْقَ لِهَذِهِ الْغَايَةِ الْعَظِيمَةِ، فَإِذَا تَحَقَّقَتِ الْعُبُودِيَّةُ الْحَقَّةُ؛ فَقَدْ تَحَقَّقَتِ الْمَعْرِفَةُ الْحَقَّةُ بِالْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ.

نَسْأَلُ اللهَ أَنْ يَفْتَحَ لَنَا فِي هَذَا النَّوْعِ مِنْ أَنْوَاعِ التَّوْحِيدِ فَتْحًا مُبَارَكًا، وَأَنْ يَرْزُقَنَا الْمَعْرِفَةَ بِهِ وَالْإِقْبَالَ عَلَيْهِ وَتَحْقِيقَ الْعُبُودِيَّةِ لَهُ جَلَّوَعَلَا.

وَصَلَّىٰ اللهُ وَسَلَّمَ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ، وَعَلَىٰ آلِهِ وَأَصحَابِهِ أَجمَعِينَ.

سُبْكُ الْأَحَدِ
الْجُمُعَة: ١٧ مِنْ رَجَب ١٤٣٥هـ
الْمُوَافِق: ١٦-٥-٢٠١٤م

وَكَتَبَ:
أَبُو عَبْدِ اللهِ
مُحَمَّدُ بْنُ سَعِيدِ بْنِ رَسْلانَ
-عَفَا اللهُ عَنْهُ وَعَنْ وَالِدَيْهِ-

الْفِهْرِسُ

مُقَدِّمَةٌ ٣

اللَّهُمَّ اجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا ٤

أَفْضَلُ الْعِلْمِ الْعِلْمُ بِأَسْمَاءِ اللهِ وَصِفَاتِهِ ٥

أَهَمِّيَّةُ مَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ الْحُسْنَىٰ وَبَيَانُ ثَمَرَاتِهَا الْعَظِيمَةِ ٧

ثَمَرَاتُ الْعَمَلِ بِمُقْتَضَيَاتِ صِفَاتِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا ٢٥

أَسْمَاءَ اللهِ الْحُسْنَىٰ وَصِفَاتُهُ الْعُلَىٰ مَدَائِحُ وَثَنَاءٌ ٢٩

تَحْقِيقُ الْعُبُودِيَّةِ الْحَقَّةِ بِمَعْرِفَةِ الْأَسْمَاءِ وَالصِّفَاتِ ٣٣

الْفِهْرِسُ ٣٥